العدد (1273) الاحد (13) تموز 2008
NO. (13) Sun . (1273)July

هل كان عبد الكريم قاسم دكتاتوراً؟

فالصراعات بدأت منذ الأيام الأولى من الثورة عندما طرح القوميون وبتعليمات من ميشيل عفلق الأمين العام للقيادة القومية لحزب البعث العربي الاشتراكي والقيادة المصرية، وتبنته قوى القومية العربية الأخرى، شعار الوحدة العربية الفورية، علماً أن هذا الهدف لم يكن من أهداف الثورة كما مر بنا، فالقوميون رفعوا شعار الوحدة العربية، واليساريون (الشيوعيون والوطنيون الديمقراطيون والسمتقلون) رفعوا شعار الإتحاد الفيدرالي.

أما شق الأحزاب وخلق أحزاب وهمية أو منافسة، مثال حزب الوطني التقدمي بقيادة المرحوم م ح

حزب جديد (الوطني التقدمي) وأصدروا جريدتهم (البيان) معلنين دعمهم للثورة وقيادتها. وقد أثبتت الأحداث أن موقف المرحوم محمد حديد كان الأصوب، ويؤكد هذا الرأي الدكتور عزيز الحاج القيادي الشيوعي السابق المعروف، أن المرحلة كانت للتيار المتمثل في قيادة قاسم ومحمد حديد وكان على القوى الوطنية دعم هذا المحور خلال تلك المرحلة.

أما الحزب الآخر الذي حصل فيه الإنشقاق فهو الحزب الشيوعي العراقي وتم خلق حزب بقيادة داوود الصائغ، الذي أجيز دون الحزب الشيوعي الحقيقي. وهذا يحتاج إلى توضيح. الكل يعرف أن الزعيم لم يقصر في موقفه الإيجابي من الحزب الشيوعي العراقي وخاصة في السنة الأولى من الثورة، بل وحتى ق

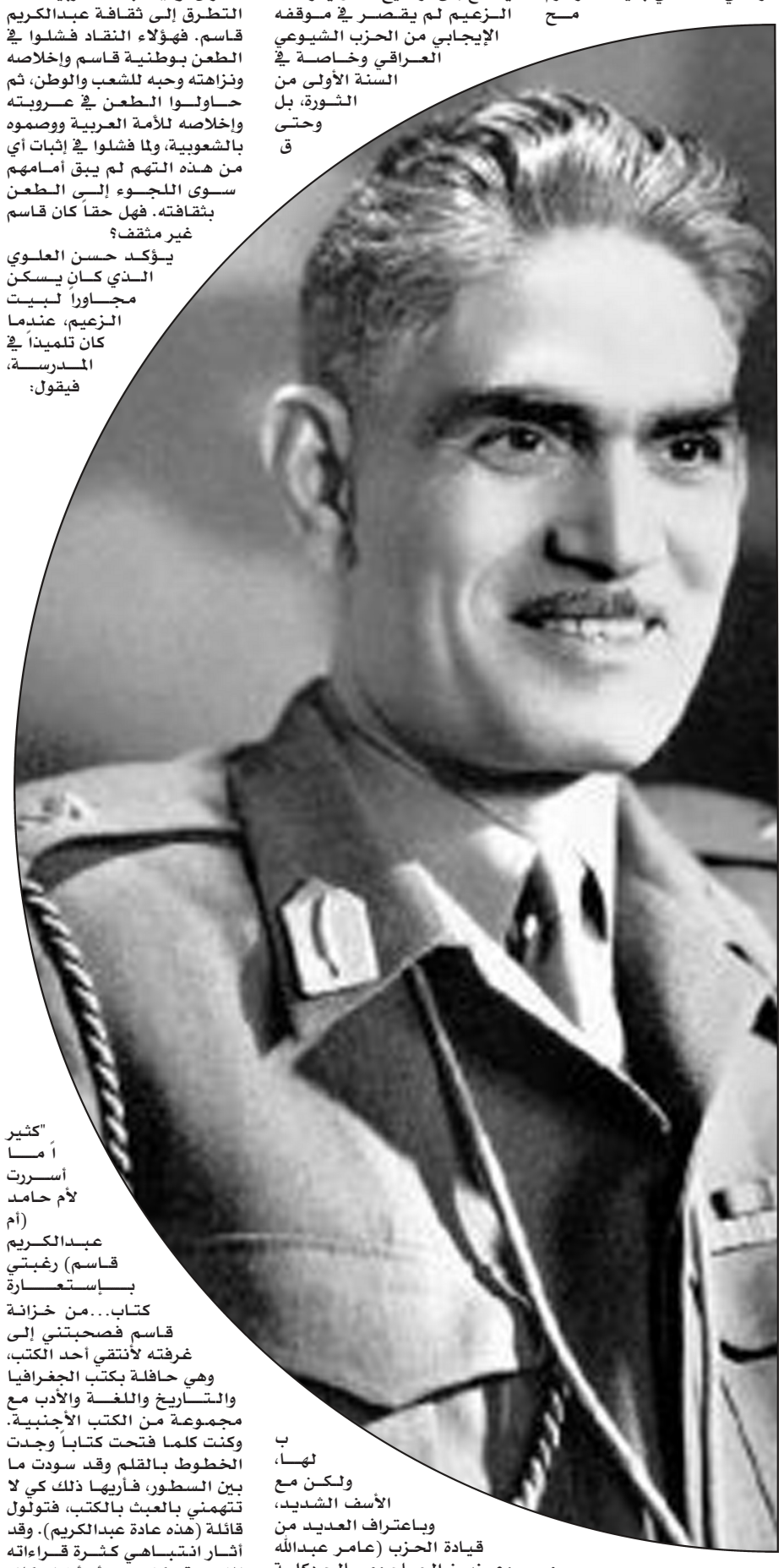

م

د حديد الذي انشق عن حزب الوطني الديمقراطي، فلا أعرف كيف يستطيع شخص عسكري يتهم بالجنون والجهل في السياسة، أن يؤثر على سياسي وطني محترف وخبير في الاقتصاد وسياسي محنك مثل محمد حديد على شق أحزابهم؟

الواقع هو أن البلاد كانت تمر في مرحلة ثورة وطنية لو قدر لها البقاء، لكانت ثمارها عظيمة للجميع، ولكنها كانت مهددة بالأخطار. وقد توسل قاسم بالجادرجي أن يقبل منصب نائب رئيس الوزراء خلال المرحلة الانتقالية إلى أن تجرى الانتخابات البرلمانية فرفض الجادرجي ذلك كما رفض التعاون مع قاسم، أما وجهة نظر محمد حديد وأغلب أعضاء قيادة الحزب فكانت مع دعم الثورة والوقوف مع قاسم.

وأتذكر أني حضرت مع أحد أقاربي، لقاء جماهيرياً في الفاو عام ١٩٥٩، وكنت يومها تلميذاً في الدراسة المتوسطة، تحدث فيه المرحوم عراك الزكم (من جناح حديد) أحد قيادي الوطني الديمقراطي، وكشف كيف كان الزعيم قد فاتح قيادة الحزب، وبحضور الجادرجي، بعد الثورة وطلب منهم أن يختاروا الحقائب الوزارية التي يريدونها، وان الثورة هي ثورتهم وأنه متأثر بأفكار جماعة الأهالي وأن برنامج الثورة نسخة من برنامج الحزب ..الخ. ولكن لأسباب شخصية بحتة ذكرناها في فصل سابق، رفض الجادرجي وحسين جميل التعاون مع قاسم، مما أضطر حديد وآخرون في قيادة الحزب تشكيل حزب جديد (الوطني التقدمي) وأصدروا جريدتهم (البيان) معلنين دعمهم للثورة وقيادتها. وقد أثبتت الأحداث أن موقف المرحوم محمد حديد كان الأصوب، ويؤكد هذا الرأي الدكتور عزيز الحاج القيادي الشيوعي السابق المعروف، أن المرحلة كانت للتيار المتمثل في قيادة قاسم ومحمد حديد وكان على القوى الوطنية دعم هذا المحور خلال تلك المرحلة.

أما الحزب الآخر الذي حصل فيه الإنشقاق فهو الحزب الشيوعي العراقي وتم خلق حزب بقيادة داوود الصائغ، الذي أجيز دون الحزب الشيوعي الحقيقي. وهذا يحتاج إلى توضيح. الكل يعرف أن الزعيم لم يقصر في موقفه الإيجابي من الحزب الشيوعي العراقي وخاصة في السنة الأولى من الثورة، بل وحتى ق

"كثيراً ما أسررت لأم حامد (أم عبدالكريم قاسم) رغبتي بإستعارة كتاب...من خزانة قاسم فصحبتني إلى غرفته لأنتقي أحد الكتب، وهي حافلة بكتب الجغرافيا والتاريخ واللغة والأدب مع مجموعة من الكتب الأجنبية. وكنت كلما فتحت كتاباً وجدت الخطوط بالقلم وقد سودت ما بين السطور، فأريها ذلك كي لا تتهمني بالعبث بالكتب، فتقول قائلة (هذه عادة عبدالكريم). وقد أثار انتباهي كثرة قراءاته النحوية. وكنت بعد أن أخذ مكانه في زعامة العراق، وصرت صحفياً ومدرساً للغة العربية أتابع باهتمام -وكأي معلم- جملة إعرابية. فأشعر بارتياح لأنه لا يلحن باللغة العربية فأعود بذاكرتي إلى تلك الخطوط مرة أخرى."

ولكن مع ذلك يصر هؤلاء على أن عبد الكريم "غير مثقف". فما المقصود بالثقافة في هذه الحالة. فالرجل خريج الكلية العسكرية وكلية الأركان العراقيتين وسانت هيرز البريطانية. وكان يقرأ الكتب الأدبية والتاريخية وغيرها، وقارئ للصحف البريطانية. وكان يقرأ الصحف الوطنية وخاصة صحيفة الأهالي حتى اعتبر نفسه تلميذاً لجماعة الأهالي ومؤمنا بمبادئها كما هو معروف.

ويقول وزير خارجيته هاشم جواد أنه كان يقرأ الكتب عندما يذهب لبيته أيام الجمعة. نعم لم يكن قاسم متأدلجاً في ثقافته. بمعنى لم تكن ثقافته تحمل لأيديولوجية شيوعية، أو بعثية عروبية. وفي رأيي هذه من الصفات الحميدة في السياسي في بلد متعدد الاتجاهات الفكرية والقومية والدينية والمذهبية كالعراق. فالأيديولوجية السياسية هي قوالب فكرية جامدة عصية على التغير، تفرض على المؤدلج تطبيقها بغض النظر عن ملاءمتها للواقع، إي فرضها على الواقع بالقوة في حياة متحركة أبداً وظروف متغيرة باستمرار. وهذا الجمود العقائدي غير صحيح في عالم متغير باطراد. وقد أثبت الزمن صحة مواقف قاسم. ومن سوء الحظ أن قاسم جاء في وقت كان فيه التنافس والتصارع الأيديولوجي على أشده إلى حد الصراع الدموي، ولم يكن فيه مكان لخط الوسطية والإعتدال والعقلانية. فأراد قاسم أن يكون للجميع حسب شعاره الذي رفعه منذ البداية: "فوق الميول والاتجاهات". وقد أدركنا الآن أن فكرة قاسم كانت صحيحة وبذلك فكان قاسم الرجل المناسب لوقت غير مناسب، لم يعرفوا قدره إلا بعد فوات الأوان.

أما إذا كان المقصود بالمثقف بأن نقارن ثقافة قاسم ببرتراند راسل أو جان بول سارتر أو روجيه غارودي وغيرهم من محترفي الثقافة، نعم فثقافة عبد الكريم قاسم دون ثقافة هؤلاء بكثير لأنه لم يكن فيلسوفاً وربما هذه الصفة في صالح الشعب. إذ كما يقول علي الوردي، وأنقل من الذاكرة، (ليس من صالح الشعب أن يصير الفيلسوف حاكماً، كما طالب به إفلاطون، لأن الحاكم الفيلسوف يحمل شعبه فوق طاقته.) ولكن لو قارنا ثقافة قاسم بمن حكم العراق من قبله ومن بعده لتبين لنا أنه كان أثقفهم.

"فثقافة الملك فيصل الأول عثمانية، وثقافة ابنه غازي شبه معدومة، وعبدالإله لم ينه الدراسة الثانوية. وثقافة نوري السعيد، كمعظم السياسيين الملكيين، عسكرية عثمانية. والرجل عاش ومات من دون أن نعرف هل نجح أو فشل في دورة الأركان العثمانية. وثقافة عبد السلام عارف لا تستحق الذكر وثقافة أخيه عبدالرحمن أقل منها كما هي ثقافة أحمد حسن البكر وطاهر يحيى. وثقافة عبدالناصر عسكرية مصرية. قارن هذا بذاك .. وإذا أخرجنا الهذر العفلقي من رأس علي صالح السعدي لما بقي لديه غير السكر والعربدة."

بعد صدور الطبعة الأولى من هذا الكتاب، استلمت رسائل عديدة من القراء الكرام ومنهم كتاب ومؤلفون، مثل الصديق صاحب الربيعي، مهندس الري والخبير في شؤون المياه الذي بعث لي رسالة جاء فيها:

(عن ثقافة قاسم: حدثني الأستاذ كاظم السماوي، إنه كان عند الزعيم وكان عنده الاقتصادي قاسم حسن وكان الأخير قد قدم تقريراً عن الوضع الاقتصادي العراقي وقد أطلع عليه عبد الكريم قاسم ووضع خطوطاً تحت بعض الطروحات والحلول. وقال الزعيم لقاسم حسن: اعد دراسة تلك الطروحات والحلول ثم أئتني بالتقرير كي أوقعه!! يقول الأستاذ كاظم السماوي، حينما خرجنا أنا وقاسم قال لي بالحرف الواحد أن الزعيم إنسان مثقف ومطلع، وسأله الأستاذ السماوي لماذا؟ فقال قاسم أن الخطوط التي وضعها الزعيم على الطروحات والحلول حينما كتبتها لم يكن لدي قناعة كاملة بها وكأنه قرأ أفكاري وان اقتراحاته للحلول هي الأصوب .)

هل كان لقاسم برنامج سياسي؟

دعيت في تموز عام ٢٠٠٢ للمساهمة في الندوة التي أقيمت في لندن، احتفاءً بالذكرى الرابعة والأربعين لثورة ١٤ تموز، وقد تحدثت فيها عن أسباب فشل الثورة في تحقيق الديمقراطية في العراق. وكانت محاضرتي عبارة عن خلاصة لما جاء في الفصل الخامس من هذا الكتاب (ثورة ١٤ تموز وموضوعة الديمقراطية). وبعد انتهاء المحاضرين من إلقاء مساهماتهم ، فتح المجال لتعقيب المداخلين من الحضور. ومن جملة التعليقات والأسئلة التي وجهت لي بالذات، أن عبدالكريم قاسم كان يفتقر إلى منهج سياسي واضح لحكم البلاد. فأجبت السائل الكريم بشكل مقتضب لضيق الوقت وهذا هو الجواب بشكل أوضح ومفصل:

ما المقصود بالمنهج السياسي؟ إذا كان المقصود أنه كان يفتقر إلى آيديولوجيا بالمعنى المتعارف عليه، نعم لم تكن لقاسم آيديولوجية معينة، ولكني أعتبر هذه الصفة من إيجابياته وتصب في صالحه وصالح الشعب، ونتمنى أن يكون جميع قادة العراق أن يكونوا بلا آيديولوجيا كذلك، لأننا نريد من القائد السياسي أن يكون براغماتياً أي عملياً، متفتح الذهن على الأفكار الجديدة والنيرة، يعيد النظر في حساباته ومواقفه بين حين وآخر ويغيرها حسب ما تقتضيه المستجدات، من دون أن يكون مقيداً بسلاسل أية آيديولوجية جامدة.

نعم لم يكن لقاسم آيديولوجيا معينة، ولكن هذا لا يعني أنه كان بلا برنامج سياسي. لقد كان لقاسم برنامجان سياسيان وليس برنامج سياسي واحد، وكان كل منهما مكملاً للآخر. الأول، كان البرنامج الذي وضعته اللجنة العليا لتنظيم الضباط الأحرار، والثاني هو برنامج الحزب الوطني الديمقراطي.

البرنامج الأول، وكما دونه اللواء محسن حسين الحبيب، أحد أعضاء اللجنة العليا لتنظيم الضباط الأحرار، وسكرتيرها، وهو قومي عروبي التوجه، والذي ناصب قاسم ألد العداء منذ الأسابيع الأولى للثورة، يذكر في كتاب له عن الثورة وقد حدد البرنامج بعشرين هدفاً وكما يلي:

١-إلغاء النظام الملكي وإقامة النظام الجمهوري.

٢-القضاء على الإقطاع وتوزيع الأراضي على الفلاحين.

٣-إسترداد حقوق العراق النفطية وتضييق مجال عمل شركات النفط الأجنبية وإقامة صناعة نفطية.

٤-الخروج من منطقة الإسترليني وتحرير الإقتصاد العراقي من التبعية البريطانية.

٥-تحقيق الوحدة الوطنية وإيجاد حل عادل للقضية الكردية،

٦-إطلاق سراح السجناء السياسيين كافة وإطلاق الحريات العامة،

٧-تضييق الفوارق بين الطبقات وفتح المجال لجميع الكفاءات والمواهب وتأمين العدالة الإجتماعية،

٨-الخروج من الاتحاد الهاشمي،

٩-التقارب الوثيق مع الجمهورية العربية المتحدة والدول العربية المتحررة الأخرى ومساندة الأقطار العربية التي ما زالت تسعى لنيل إستقلالها،

١٠-إسناد نضال الشعب الفلسطيني بكل الإمكانات المتيسرة لاستعادة أرضه وحريته،

١١-الوحدة العربية هدف مصيري يجب السعي لتحقيقها، إلا إذا تعرض العراق لغزو خارجي يستهدف إعادة النظام الملكي. حينئذ يمكن المناداة بالوحدة الفورية مع الجمهورية العربية المتحدة،

١٢-الخروج من حلف بغداد،

١٣-إزالة السيطرة البريطانية على القواعد العسكرية في العراق وجعلها تحت السيطرة الكاملة للجيش العراقي،

١٤-إتباع سياسة الحياد الإيجابي وعدم الإنحياز،

١٥-إقامة علاقات دبلوماسية كاملة مع الدول الإشتراكية،

١٦-سياسة العراق الخارجية وعلاقاته تبنى على أساس الاحترام المتبادل والمصلحة المشتركة،

١٧- تأليف مجلس قيادة الثورة من أعضاء اللجنة العليا ويقوم المجلس بمهام السلطة التشريعية حتى إجراء إنتخابات نيابية عامة،

١٨- تشكيل حكومة مدنية من رجال السياسة المعروفين بكفاءاتهم ومواقفهم الوطنية،

١٩- تحديد فترة انتقالية يشرع بعدها الدستور الدائم وتجرى انتخابات نيابية لانتخاب برلمان جديد يحدد على أثرها شكل الحكومة.

٢٠- رئاسة الجمهورية أنيطت بمجلس السيادة كحل وقتي إلى أن تستقر الأمور وتتضح الاتجاهات بعد ذلك.

وقد أجرى المؤرخ العراقي المعروف حسن العلوي شبه اختبار مدرسي لعبد الكريم قاسم في كتابه القيم (عبدالكريم قاسم رؤية بعد العشرين) وتوصل إلى أن قاسم قد نفذ ١٧ من ٢٠ هدفاً من البرنامج الذي ذكره اللواء محسن حسين الحبيب، وبذلك يكون قاسم قد نفذ ٨٥٪ من برنامج الضباط الأحرار، وهذه درجة امتياز، كما جاء ذكره في مكان آخر من هذا الكتاب.

أما البرنامج الثاني الذي تبناه عبدالكريم قاسم فهو برنامج الحزب الوطني الديمقراطي، وحسب شهادة الباحث حنا بطاطو الذي يؤكد أن قاسم كان متأثراً بأفكار الحزب المذكور وقد أناط مسئولية كتابة أغلب القوانين التي أصدرتها حكومة الثورة بأعضاء قيادة الحزب بما فيه الدستور المؤقت. ونتيجة لهذا التعاون، كما يشهد بطاطو، حصل إزدهار في الإقتصاد والصناعة لم يشهد العراق له مثلاً في تاريخه.

كما اختار خيرة الرجالات العراقية خبرة وإخلاصاً من زعماء الحركة الوطنية في الوزارة الأولى لحكومة الثورة. وعلى سبيل المثال لا الحصر، أختار من القوميين محمد صديق شنشل للإرشاد (الإعلام)، وجابر عمر للمعارف، وعبدالجبار الجومرد للخارجية، وفؤاد الركابي للإعمار. ومن الأكراد المستقلين بابا على الشيخ محمود الحفيد وزير دولة، ومصطفى علي للعدل. ومن الوطني الديمقراطي أختير محمد حديد للمالية، وهديب الحاج حمود للزراعة، كما أختير إبراهيم كبة للإقتصاد وهو ماركسي معروف. أما الوزارة التي تشكلت في ٧ شباط ١٩٥٩، فيصفها محمد صديق شنشل بأنها كانت حكومة كامل الجادرجي، لأنهم إما كانوا أعضاء في حزبه أو قريبين من أفكاره. وهكذا كان قاسم قد اعتمد في تنفيذ مشاريعه التنموية على خيرة الرجال.

وتبني قاسم لبرنامج الحزب الوطني الديمقراطي ليس بالأمر الغريب في عالم السياسة، بل هو أمر مألوف حتى في البلدان المتطورة والعريقة في الديمقراطية. فعلى سبيل المثال لا الحصر، لقد تبنى حزب العمال البريطاني في الأربعينيات من القرن الماضي، برنامج الخبير الاقتصادي البريطاني المعروف جون مينارد كينز، أستاذ الإقتصاد في جامعة لندن للاقتصاد وصاحب المدرسة الكينزية المعروفة بدولة الخدمات (welfare state)برغم أنه كان عضواً في حزب الأحرار. وبالمناسبة كان محمد حديد تلميذ هذا الخبير الاقتصادي الكبير في نهاية الثلاثينيات عندما كان يدرس علم الإقتصاد في جامعة لندن. وقد لعب حديد دوراً كبيراً في إنجاح المشاريع الاقتصادية لحكومة الثورة وكان قاسم يعتمد عليه كثيراً حتى عندما كان خارج السلطة. ومن كل ما تقدم، نستنتج أن قاسم كان صاحب برنامج سياسي ونفذ معظمه. أما الأهداف التي فشل في تحقيقها، فقد فشل جميع الذين حكموا العراق من بعده.

شعبية قاسم

المعروف عن عبد الكريم قاسم أنه نال أوسع شعبية أكثر من أي زعيم سياسي في تاريخ العراق الحديث. والسر في ذلك هو بساطته ونزاهته وإخلاصه وحبه للشعب، وخاصة للطبقات الفقيرة، فقد بنى لهم عشرات الآلاف من الدور السكنية وعمل على رفع مستواهم المعيشي وكان يلتقي بهم بتكرار. وهو أول عراقي من عامة الشعب يصل إلى رئاسة الحكومة، فهو الذي كان يعتز بكونه ابن نجار. ونتيجة لذلك فقد كسب قلوب وعقول الناس، فهو بالنسبة لجماهير الشعب يعد بحق بطلهم الأسطوري. وفي مثل هذه الحالات، وفي مرحلة تاريخية معينة كالتي كان يعيشها العراق آنذاك، لا يكتفي الإنسان بالصفات البشرية المعروفة على البطل، بل لا بد وأن تتدخل الأسطورة في الواقع، لإضفاء صفات أسطورية عليه فوق مستوى البشر. والتاريخ مليء بالأمثلة.

ولم تخذله الجماهير المحبة له، فقد خرجت بمئات الآلاف لنصرته يوم إنقلاب ٨ شباط ١٩٦٣، إلى حد أنه عندما سمع قاسم بالانقلاب وهو في بيته، وأراد الذهاب إلى وزارة الدفاع عن طريق شارع الجمهورية لم يستطع لأن الشارع كان مكتظاً بالجماهير التي تهتف (ماكو زعيم إلا كريم). وقد شاهدت بعيني ذلك اليوم وأنا قادم من البصرة إلى بغداد بالقطار في طريقي إلى الموصل للالتحاق بكلية الطب بعد انتهاء عطلة نصف السنة، حيث كنت في السنة الأولى من دراستي فيها، وبعد أن غادرت القطار توجهت إلى ساحة التحرير، فوجدتها، وكذلك شارع الرشيد، عبارة عن بحر بشري متلاطم، خاصة بالجماهير حاملة صور الزعيم وهي تردد نفس الهتاف (ماكو زعيم إلا كريم). ويقال أن طاهر يحيى أراد أن يشق طريقه ليلتحق برفاقه الإنقلابيين قرب وزارة الدفاع، فشقه بصعوبة وسط الجماهير وهو يردد معهم (ماكو زعيم إلا كريم).

وتحت عنوان (الرعب في خدمة الثورة -إنقلاب ٨ شباط-) يذكر طالب شبيب في مذكراته: "وفي المدخل الرئيسي للمعسكر (الرشيد) قام أنور عبد القادر الحديثي بعمل مرعب، لا أعرف ماذا ستكون نتائجه علينا، لكنه أثر كثيراً على معنويات الجنود والضباط داخل المعسكر. فقد تجمهر أمام بوابة معسكر الرشيد الرئيسية حشد من الجنود وضباط الصف وبعض الضباط والمدنيين يهتفون "ماكو زعيم إلا كريم" و"عاشت الجمهورية العراقية الخالدة"، وآنذاك نادى أنور الحديثي على أحد الهاتفين وطلب منه إعادة هتافه، ولما أعاده، أطلق عليه أنور من مسدسه الذي صوبه نحو رأس الجندي مباشرة فسقط على الفور ميتاً. وفرغت الساحة من كل المتظاهرين، بسبب ما سببته العملية من رعب وذعر."

وفيما يتعلق بالسخرية من شعبية قاسم، يقول قاسم الجنابي (مرافق قاسم) وهو شاهد عيان خلال حوار الإذاعة، فيقول أن وجه عبد الستار عبد اللطيف كلامه إلى عبد الكريم قاسم قائلاً: "إنك مسيطر والشعب معك، دبابة واحدة أسقطتك". ويعلق الدكتور علي كريم سعيد بحق قائلاً : "كان ذلك بمثابة رسالة رعب لشعب أدعوا أنهم ثاروا من أجله. فجاءت تلك، رسالة استفزاز همجية لا تنتمي إلى حضارة إنسانية عمرها ستة آلاف عام. وكأنها رسالة تقول: إن الحكومة الجديدة قاسية. كما إنها تعني بأن الثوار أذعنوا لفكرة: إن لهم الدبابة ولخصومهم التعاطف الشعبي. كذلك كان المشهد التلفزيوني في إهانة جثة الزعيم. كان ذلك المشهد التلفزيوني أسوأ اللقطات المسجلة في تاريخ العراق المعاصر، فلم يكن العراقيون حتى يميزوا بهذه المعاملة عن غيره. بل ربما كان صراعاً لعب فيه قاسم دور أكثر المتصارعين وداعة وتسامحاً وأقلهم همجية وأدلجة وتشريعاً للقتل، فقد سن عملياً قاعدة: "عفا الله عما سلف". وكان فيها أقرب إلى عقلية العراقيين البسطاء قبل عصبية الأيديولوجيا الواردة..."

ألقاب قاسم

وكتعبير عن إعجابها وحبها للزعيم، أطلقت الجماهير عليه عشرات الأسماء الشعبية بصورة تلقائية منها: "الغضنفر" و"أبو دعير" و"الزعيم الحبيب" و"الزعيم العبقري" و"المنقذ" و"بطل تموز" و"مفجر الثورة" و"الأسد الهصور" و"الرجل الرجل"، و"صانع التاريخ" و"البطل المغوار" و"أبو الأحرار" و"عملاق الثورة" و"إبن الفقراء" و"إبن الشعب البار"، و"المعلم الأول" و"نصير العمال والفلاحين" و"حبيب الملايين" وإلى غيرها من الأسماء العديدة.

كما أطلق الشيوعيون عليه لقب "الزعيم الأوحد، والزعيم الملهم نكاية بمنافسه عبدالسلام عارف. أما الأرجوزة (ماكو زعيم إلا كريم) فيذكر حنا بطاطو في كتابه (تاريخ العراق) أن عبدالسلام عارف هو الذي قد أطلقها على قاسم وذلك في أحد اجتماعات اللجنة العليا لتنظيم الضباط الأحرار قبل الثورة وكان النقاش حاداً يدور حول من يتزعم الثورة، فقام عارف قائلاً: "ماكو زعيم إلا كريم وهذا حدنا وياكم".

لقد استغل خصوم قاسم هذه الألقاب في غير صالحه مدعين أنه كان نرجسياً.. الخ. فما ذنب الرجل إذا كان الناس يطلقون عليه مثل هذه الصفات والألقاب تعبيراً عن تعلقهم به وهو يختلف كل الإختلاف عن أسماء صدام حسين التي جاوزت المائة، فشتان بين قاسم وصدام .

كذلك هناك من أدعى أنه شاهد صورة الزعيم في القمر، أو صورته مرسومة على بيضة.. الخ. أغلب الظن كان خصومه ينشرون مثل هذه الأقاويل والصفات من أجل الطعن به فيما بعد. ومثال على ذلك، هناك أغنية تقول: (عبدالكريم كل القلوب تهواك) وأخرى: (أرواح الشعب فدوى لإبن قاسم). هذه الكلمات هي من نظم سكرتيره النقيب جاسم كاظم العزاوي، والذي ظهر فيما بعد أنه كان متواطئاً مع إنقلابيي ٨ شباط ١٩٦٣,

والشيء بالشيء يذكر، يقول الأديب العراقي، ذوالنون أيوب، عن جاسم كاظم العزاوي سكرتير الزعيم، والذي صار سفيراً في النمسا أيام حكومة بكر-صدام: ".. وكان هذا السفير قد اظهر لي من الود ما لم أره من سفير آخر قبله ولا بعده، فقد كانت تربطني به رابطة تبعيتنا السابقة للزعيم عبد الكريم قاسم، واعتماده علينا. ولكن الناس صاروا يقولون عنه بعد مصرع الزعيم قاسم، أنه كان لقاسم كيهوذا الأسخريوطي للمسيح. وعذراً أبا هيثم فإنما أنا أردد إشاعة قد أكون غير مقتنع بصحتها."

هل كان قاسم دكتاتوراً ؟

الدكتاتورية ظاهرة لها صفات معينة. وهذه الصفات تمتد من الحاكم الدكتاتور في قمة السلطة إلى أوطأ الطبقات في الدولة، فتجدها في الشارع وفي الدائرة وفي المعمل وفي الصحافة والإعلام وفي كل مكان. في النظام الدكتاتوري هناك جواسيس ورجال الأمن منتشرين في كل زاوية من زوايا المجتمع يحصون على الناس أنفاسهم. والناس في حالة هلع خوفاً أن تبدر منهم بادرة يحاسبون عليها. هذه الصفات لم تكن موجودة في عهد قاسم حسب إعتراف خصومه ومحبيه. فالصحافة كانت تتمتع بالتعددية ولم تكن مؤممة. يقول حسن العلوي: "أقيمت مناقب نبوية على أرواح الطبقجلي ورفاقه، ساهم فيها قارئ المقام يوسف عمر، وقارئ القرآن عبدالستار الطيار، وكان كل منهما يقرأ قصائد معادية للوضع القائم آنذاك، وتنصب المايكروفونات في الأماكن العالية، من دون أن يتعرض لها أحد من أفراد الشرطة والأمن والإنضباط العسكري، لكونها أماكن دينية ولم يتعرض لها عبد الكريم قاسم طبلة فترة حكمه مع إنها كانت مراكز نشاط معارض لحكمه.. وبرز إسم يوسف عمر ليس مطرباً بل محرضاً من أهم المحرضين ضد ذلك الحكم. وكانت حفلاته الغنائية العادية تنقل بالإذاعة والتلفزيون بشكل مستمر."

وعندما كانت تخرج مظاهرات معادية له تهتف (يا بغداد ثوري ثوري، خلي قاسم يلحك نوري) وكان قاسم يبعث بالجنود بعد تجريدهم من السلاح، لا لضرب المتظاهرين ضده، بل لحمايتهم من مظاهرة أخرى يقوم بها اليساريون ولمنع التصادم بينهما. كان خصومه يقدمون نكات لاذعة ضده وضد المهداوي علناً وعلى المسارح من دون أن يتعرضوا إلى أية مساءلة. واعترف سجناء سياسيون من البعثيين أن السجن كان أشبه بالفندق، تتوفر لهم الفرص لنشر أفكار حزبهم وتنظيم الآخرين. وبهذا الخصوص يشهد الأستاذ معاذ عبدالرحيم، وكان عضواً في حزب البعث وأحد المعتقلين فيقول: "إن الإعتقال أيام عبدالكريم قاسم كان بالنسبة لنا.. أشبه بالفندق، لا تعذيب ولا تنكيل فالعناية جيدة، ومواجهة الأهل مستمرة، وما يصلنا من الأهل من طعام وملابس متيسر، بل أن الموسرين من المعتقلين يطلب من أهله أن يزودونه بأكلة (الباجة) وبالدولمة وغيرها من الأكلات العراقية المشهورة، وكنت من أعضاء الحزب الذين لم يمنعهم الإعتقال من العمل لكسب الأنصار والمؤيدين للحزب.."

كما ويشهد حسن العلوي الذي كان معارضاً لقاسم ودخل الإعتقال آنذاك، قائلاً: "كانت ليالي الاعتقال تتحول إلى جلسات حزبية وأهازيج.. وكان ناظم كزار يعقد محكمة خاصة والتي تقضي عادة على المتهم اليومي عبدالكريم قاسم بالإعدام. فيقوم ممتاز قصيرة (طالب طب الذي أعدمه عارف فيما بعد) بالتنفيذ ويصيح: راح الزعيم.. اطلقوا سراح عبدالسلام من السجن".

لا بل كان بيت قاسم من دون حراسة مما أمكن حزب البعث دس المناشير في غرفة نومه بواسطة طفل من الجيران. ولما اكتشف ذلك لم يحاسب أحداً وهو يعرفهم، بل تحول إلى بيت آخر كما يشهد بذلك حسن العلوي. فيا ترى هل هذا الشخص دكتاتور.؟

وعن صفات قاسم، يقول حنا بطاطو: ومما يعكس شخصية قاسم في هذه المرحلة ملاحظته التي أدلى بها في أحد أيام شهر تشرين الثاني ١٩٥٨، إلى محمد حديد، وزيره للمالية. فعند خروجه من مؤتمر للمحامين عقد في فندق بغداد، حيث كيل له المديح على كل النغمات الممكنة، التفت إلى حديد قائلاً: "أبو هيثم، أشد ما أخشاه على نفسي أن يصيبني الغرور". وكانت هناك صورة مطابقة لهذه التي رسمها لقاسم، عند هاشم جواد، وزيره للخارجية من ١٩٥٩- ١٩٦٣، إذ قال لبطاطو: "في البداية، كان يسهل الوصول إليه، وكان مفتوح الذهن وشديد التوق للتعلم ...ولكن الأحداث وضعت المزيد والمزيد من السلطات في يديه ...وما زلت أتذكر كيف أنه في الأشهر التي تلت إنقلاب الموصل الفاشل عندما عمت الفوضى الجهاز الإداري، لم يعد الوزراء يتخذون أية مبادرة من دون الرجوع إليه.. وهكذا فإن قاسم الذي لم يكن له رأي مسبق ولا مبادرة الذي عرفته في عام ١٩٥٨ بدأ يتذوق لذة كونه الرجل الوحيد في البلد. وبكلمات أخرى: لقد صنعنا دكتاتوراً ...إن شعبنا في الحقيقة صانع للدكتاتورين"

لذلك ومن كل ما تقدم، نعرف أنه لا تنطبق صفات الدكتاتور على قاسم. بل كان من أقرب السياسيين إلى الديمقراطية. فعندما أقدم حسين جميل وزير الإرشاد (الإعلام) على غلق صحيفة الحزب الشيوعي (إتحاد الشعب)، رفض ذلك القرار وأعاد نشرها، وعندها استقال الوزير إحتجاجاً على ذلك. ومن الغريب أن يقدم رجل قانون وديمقراطي مثل حسين جميل بغلق صحيفة بسبب خلاف سياسي. فمن كان أقرب للديمقراطية، عبدالكريم قاسم العسكري، أم حسين جميل السياسي المدني وهو الشخص الثاني في الحزب الوطني الديمقراطي بعد زعيمه الجادرجي؟

كما وقال محمد حديد عن قاسم أنه كان أقرب أقرانه العسكريين إلى روح التسامح وفكرة الديمقراطية، فقد ظلت مناصب الدولة في عهده موزعة على الجميع وليس على تيار سياسي واحد.

وقاسم معروف عنه بالرحمة. فهو أول حاكم عراقي بشر بروح التسامح وشعاره المعروف (عفا الله عما سلف) وأبناء ذلك الجيل يتذكرون تصريحاته بعد خروجه من المستشفى الذي عولج به من إصاباته البالغة إثر إطلاق الرصاص عليه في شارع الرشيد من قبل الطغمة العفلقية من ضمنها صدام حسين، حيث عفا عنهم بعد أن حكمت عليهم المحكمة بالإعدام. هذا الموقف المتسامح يؤاخذه عليه اليساريون فيقول الشاعر كاظم السماوي في مذكراته بهذا الخصوص: "نهض عبد الكريم قاسم بعد محاولة اغتياله، وكان المؤمل أن يضرب بيد من حديد، ولكنها كانت من خشب" (كذا). نعم أراد قاسم أن يضرب مثلاً في روح التسامح في بلد تشبع شعبه على قيم الثأر والإنتقام والعنف.

لقد كان قاسم اقرب اقرانه العسكرية الى روح التسامح وفكرة الديمقراطية فقد ظلت مناصب الدولة في عهده موزعة على الجميع